في ذكرى الرافعي

[ألقيت في الحفل الذي أقيم بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة يوم ٤ نوفمبر تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ وكان الشاعر في هذا الحفل على موعد مع أول خطاه في سبيل نباهة الذكر، والالتفات إلى فنه، ورعاية مواهبه...].

من جانبِ الخلدِ في ظلِّ النبيِّينا ... روحٌ أطلَّتْ على أرجاءِ نادينا
تصغي إلى كلمةِ التاريخِ منصفةً ... جرتْ بها اليومَ أقلامُ الوفيِّينا
وتجتلي صفحةَ التقديرِ ناصعةً ... من بعدِ أن طُويتْ بين الورى حينا
قد فاتَ صاحِبَها التكريمُ عن حسدٍ ... حيّاً، فسُقناهُ بعد الموتِ تأبينا

* . * . * . * . *

الحقُّ كالشمسِ لا تخفى أشعَتُها ... إلا لتغمرَ عندَ الصبحِ وادينا
وإن أمالَ موازينَ الرجالِ هوىً ... عن الصوابِ فقد ساءتْ موازينا
كالوا لـه التُّهمَ النكراءَ قاتلةً ... وأرهفوا حولَهُ الأحقادَ سكيّنا
فأغلقَ السمعَ دونَ القومِ ثم مضى ... في جانبِ الحقِّ لا يُبدي لهم لينا

* . * . * . * . *

إني لأعجبُ من شادٍ بهِ صممٌ ... قد أسمعَ الكونَ تغريداً أفانينا
كانت أناشيدهُ أنغامَ عزتِنا ... ولمْ تزلْ معرباتٍ عن أمانينا
فهل ترونَ إذا أصغتْ لنا أذنٌ ... في أي هاويةٍ باتت أغانينا
مشتْ إلى الفتنةِ الرعناءِ توقظُها ... وبالخلاعةِ تغري النشء تلقينا

من همسةِ الجنسِ قد صيغت مراهقةٌ ضجَّ المجونُ بها معنًى وتلحينا
يا مبدعاً لمعاني الخيرِ.. مشرقةً قد ماتَ لكنَّه أحيا الملايينا
كم بيَنَنَا اليومَ من حيٍّ كتابتُهُ تميتُ كلَّ شعورٍ صالحٍ فينا
قد جاءَ ما قلتَهَ في الحبِّ مكرمةً وهالةً من سنى تكسو المحبينا
ولم يكن كتفاهاتٍ تسيرُ بنا إلى انحلالٍ غويٍّ كادَ يطوينا
وليسَ مَنْ خطَّ أفكاراً تصيَّدَها من الفراشِ ،كمن خط المساكينا[1]

* . * . * . * . *

تلك الروائع قد خلَّفْتَها قمماً من الفنون جلَتْ أمجادَ ماضينا
تألقتْ في رُبا الإسلام معرفةً وأشرقتْ في فم الدنيا عناوينا
للدِّينِ والضادِ قد سطرتها مُداً لما عرفتَهما أقوى صَيَاصينا[2]
هذا من الذلِّ والأغلالِ يعصِمُنا وتلكَ تحفظُنا روحاً وتكوينا

* . * . * . * . *

فهل أتاك حديثُ القومِ حين مضَوْا في مصرَ يستنكرون الضاد والدنيا
ضحالةٌ من ثقافاتٍ مردَّدةٌ في الغربِ يمشي بها الإلحاد تنّينا[3]
وأنفسٌ مرضتْ، لم يشفِ علَّتَها هَدْيُ السماءِ ولا نصحُ المداوينا
تبيتُ يقتُلها مِنْ جهلِها ظمأٌ والماءُ يجري زُلَالاً بين أيدينا
ونظرةٌ في كتابِ الله واحدةٌ يُسْقَى بها من مَعين الحق صادينا

---

(١)المساكين : كتاب للرافعي قال عنه مؤلفه «أردت به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس». وقال عنه المرحوم أحمد زكي شيخ العروبة: لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته. وقال الأستاذ محمد سعيد العريان: إنه صور آلام الإنسانية كبيرة الألوان متعددة الظلال، صور المساكين الذين يحتسون الدموع، أو يتطهرون بالدموع.

(٢) الصياصي : الحصون.

(٣) التنين : حية عظيمة.

ومحنةُ الضادِ ما زالتْ تطالِعُنا بها الصحافةُ أو تُزْجَى دواوينا
شعرٌ إذا ما حججنا منه قائلَة فبالجمودِ أو الإغلاق يرمينا
لا تستبينُ سنا الإلهامِ فيهِ ولا يُرضي العرائسَ أويرضي الشياطينا[1]
لما بدا قَلِقَ الأوزانِ مُضطرباً فَرّتْ على خجلٍ منه قوافينا

* . * . * . * . *

إن اكتفيْنا بما سقناهُ تكرمةً للرفاعي فقد قلَّتْ جوازينا[2]
فكرِّموه بأن تحيا له مُثُلٌ عُليا إذا هي حيَّتْ سوف تحيينا

* . * . * . * . *

---

(١) العرائس والشياطين : هي عرائس وشياطين الشعر كما يقولون، وهي خرافة يعتقد بها الجاهليون وهي أن للشر شيطاناً يوحي به للشعراء وكذلك عرائس.

(٢) جوازينا : أي ما جازيناه به على هذه الأمجاد.